

في عام ١٩٠٦ عن هذا الانقلاب الذي طرأ على أدبه: "لقد شعرت بوحشية الناس وفزعت منها منذ خمسة وعشرين عاماً، عندما جرى في أعماقي هذا الانقلاب، الذي بيّن لي معنى الحياة الإنسانية الحقيقية وهدفها. واتضح لي أنّ حياتنا، أيّ حياة الطبقات الغنية، فارغة المضمون، لا بل هي بحد ذاتها جريمة بحق أخوتنا من الطبقات الأخرى لأنها مبنية على أوجاعهم وعلى آلامهم (١١٦ص ٧٥-٧٦).

كتب ليف تولستوي في عام ١٨٧٩-١٨٨٠ "اعترافه" الشهير، لكنه لم يعلم أنّ هذا المؤلف سيرى النور مباشرة، لكنه رأى أنّ هذا المؤلف سينشر يوماً ما لأنه يتضمن أفكاراً صحيحة.

ويكتب تولستوي في "اعترافه" أنه لم يستطع أن يعرف معنى الحياة في طبقته، لأنّ حياة طبقته شبيهة بالحياة وليست حياة. فهذه الطبقة قليلة العدد وشاذة، ولذلك توجه تولستوي إلى الشعب الكادح، الذي كان يفهم، أنّ معنى الحياة هو تطبيق إرادة الله، لأننا جننا إلى هذا الكون بإرادته. ولقد خلق الله الإنسان خلقاً يجعله يستطيع أن يخلص نفسه. ويستطيع أن يهلكها، أيّ أنّ الله ترك للإنسان حق الاختيار. فرسالة الإنسان في هذه الحياة تتلخص بإنقاذ روحه، ولذلك يجب عليه أن يعيش بمخافة الله، أيّ يجب عليه أن يعمل ويصبر ويتواضع ويرحم الآخرين.

تثير الانتباه نهاية "الاعتراف" حيث يتحدث تولستوي عن حلم وجد نفسه على حافة منحدر، فنظر إلى الأسفل وخاف من السقوط. ونظر آنذاك إلى الأعلى ورأى السماء الكبيرة اللامتناهية. وجذبته السماء بعظمتها، وزال الخوف. وأكد تولستوي أنه رأى هذا الحلم، ولم يتخيله. فلقد سأله ن.ن. غوسيف في عام ١٩٠٨: هل رأى أحلاماً مهمة؟ وذكره بالحلم الذي يصوره في "الاعتراف" فأجاب تولستوي بحيوية "نعم لقد رأيت هذا الحلم، ولم أصوره من خيالي (١٤٥ص ٨٦).

أمّا في كتابه "بما أو من؟" الذي كتبه في عام ١٨٨٤، فيلخص تولستوي مضمون الوصايا الإنجيلية الخمس، أو القواعد التي تتضمن جوهر الدين المسيحي، كما فهمه.

الوصية الأولى: "عش في العالم مع كلّ الناس. ولا تظن غضبك على الناس عادلاً أبداً، ولا تعتبر أيّ إنسان ضائعاً أو مجنوناً، مهما كان، واعتبر غضبك على الآخرين ظلماً، وغضب الآخرين عليك عادلاً" (١٠٠ص ٣٥١).